الفصل الثالث

العصر الجاهلى

وصف الخمر والسقاة

الأعشى ــ عمرو بن كلثوم ــ علقمة ــ الأسود النهشلى ــ عدى بن زيد

رأينا أن العربى كان فى حياته الجاهلية على صراع دائم ونضال مستمر ، طوراً يقف للطبيعة القاسية ، وطوراً للعدو الغازى والمحارب المنتقم ، فكأن أيامه كما يصورها شعر الجاهليين كانت حزينة فى أكثر الأحيان . ولا بد لدفع هذا الحزن فى نظره من شراب ينسيه وخمر تعزيه فيسلو الآلام وينتعش للآمال . ولعله شرب الخمر ليستقبل الموت أو يستلهم النشاط ، فهو يعتقد أن العمر قصير وأن الفناء قريب منه يفجؤه فى كل حين ؛ تعدو عليه الطبيعة أو يسطو عليه العدو .

ولسنا نملك التحقيق فى أولية الشعر الجاهلى أو صحته لنعرف أول من شرب وأول من وصف الشرب ، ولكننا نستطيع أن نقبل أن الشعر الذى بلغ إلينا يمثل ما قاله الشعراء الجاهليون فى مبادئه وأسسه ــ كما يقول العلماء اليوم ــ فنتخذه وسيلة إلى دراسة هذا الوصف فى الخمر والسقاة ، كما اتخذنا وصف الحيوان والطبيعة.

وقد أتانا أن أحسن الوصافين للخمر فى الجاهلية هو الأعشى وأنه كان زعيم المدمنين وسيد الشاربين ، أطال صحبة الشراب وعرف ما يتقلب عليه من ألوان وصفات ، فجاء بصورة جميلة كانت موضع التقدير والتقليد خلال عصورنا الأدبية كلها فى قصيدته المشهورة :

فقمنا ولما يصح ديكنا إلى جونة عند حدادها (١)
تنخلها من بكار القطاف أزيرقُ آمن أكسادها (٢)
فقلنا له : هذه هاتها بأدماء فى حبل مقتادها (٣)
فقام فصب لنا قهوة تسكننا بعد إرعادها (٤)
كميتاً تكشف عن حمرة إذا صرحت بعد إزبادها (٥)
فجال علينا بأبريقه مخضب كفّ بفرصادها (٦)

فهو سينطلق قبل أن يصحو النيام ويصيح الديك مؤذناً بالفجر ، ويقصد خابية مترعة يحفظها خمار حريص تخير كرمها ، وجناها رجل رومى خبير بصناعته مطمئن إلى بيعها ورواجها ، فيطلب إليه أن ينزع الأباريق وأن يدفع له ثمنها ناقة أدماء ، فقام الخمار وصبّ قهوة تهدئ النفوس بعد ثورتها ، فكانت فى لون الحمرة القانية حين تصفو رغوتها ويزول زبدها . وجال بها الساقى فطاف علينا بكؤوسه وهو مخضب الكف ، فشربنا حتى خارت القوى وسكن الجسم .

ويقص الأعشى بعدها ما وقع لزميله من شدة الشرب خلال النهار كله ووهناً من الليل ، فى أسلوب رقيق ومشاهد متعاقبة حية ، تنبض بالنشاط وتضج بالحركة ، وقد نقل إلينا ما دار من حوار خلال ذلك :

---

(١) ديكنا : ديك الفجر — الجونة : الخابية المطلية التى توضع فيها الخمر — حدادها : خمارها ، سمى كذلك لحفظه إياها .

(٢) تنخلها : تخيرها — بكار القطاف — مباكرة القطف والجنى — أزيرق : تصغير أزرق وهو صاحبها ويكنى به الرومى لأنه أزرق العينين — إكسادها : بوارها .

(٣) أدماء : ناقة يخالط بياضها سمرة — مقتادها : صاحب قيادها .

(٤) قهوة : خمر — تسكننا : تهدئنا — إرعادها : يقصد إزبادها وفورانها .

(٥) كميت : خمر يغطى حمرتها سواد — صرحت : صفت — إزبادها : فورانها وانتشار الحبب فوقها .

(٦) مخضب كف : مصبوغ الكف بخضاب الحناء — فرصاد : صبغ أحمر ، ويطلق على التوت الأحمر .

فقال : تزيدونـــى تسعة وليست بعدل لأندادها [١]
فقلت : لمنصفنـــا : أعطه فلما رأى حرص شهادها [٢]
أضـــاء مظلتـــه بالسرا ج ، والليل غامر جدادها [٣]

وهذا وصف لطيف للشرب فى البادية ، وأحاديث تقع خلال ذلك على الزمن ، سبق إليها الأعشى والفضل للمتقدم .

وأما خمر عمرو بن كلثوم فهى صفراء من خمر « أندرين » مزجت بالماء الحار كما يفعل الروم فى بلدهم ، فأنعشت الشارب ورققت الطباع وأحالت الرجل الضيق سمحاً ليناً ، والرجل الشحيح سخياً كريماً :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ما ذاقها حتى يلينا [٤]

وعلقمة الفحل ، يطلبها معتقة معصورة من العنب كغيره ، ولكنه يجد أنها تشفى الصداع وتزيل الدوار ، ولا يصيب الرأس منها وجع ، ذلك لأنها من « عانة » قد لبثت فى دنها سنة كاملة . وساق علقمة روى كذلك يغطى فمه عند السقى بشىء من الكتان على عادة الأعاجم ، وأما إبريقه فيشبه ظبياً وقف على محل مرتفع قد لف بالكتان وكسر أنفه .

وقد أضاف الشاعر بهذا صورة للروم السقاة حين يغطون أفواههم بالكتان ولعل ذلك لئلا يشاركوا الشرب فى استنشاق عبيرها أو يفسدوا رائحتها بأنفاسهم ، كما يفعل الأطباء اليوم عند ما يحذرون خطر أنفاسهم على المريض ، فالخمر دواء فى رأى هؤلاء الشعراء ، يتناوله المرضى فى سبيل الصحة والقوة والعافية ، وليس للساقى أن يفسد الدواء :

---

(١) أى تسعة أباريق — عدل : معادلة — أنداد : نظراء .
(٢) المنصف : الساقى والخادم .
(٣) مظلة : خيمة — غامر : شامل — الجداد : الأهداب .
(٤) تجور : تميل — ذو اللبانة : صاحب الحاجة .

تشفى الصداع ولا يؤذيك صالبها ولا يخالطها فى الرأس تدويم [١]

والأسود بن يعفر النهشلى ، يصف السلافة وقد مزجت بماء الأمطار ويصور الساقى ، يلبس فى خصره منطقة ، ويحمل فى أذنيه أقراطاً . وفى صوته غنة جميلة ، وفى أنامله حمرة الفرصاد . ثم يرسم المجلس وقد طافت بالشرب غانيات كالدمى من رخام فى جمالهن أو كالبدر فى بياضهن ، نواعم يمشين بالأقداح الجميلة فيرمين القلوب بالمحاجر ، ويسقين بأحاديثهن وأقوالهن فيسكر القوم بخمر العيون وخمر الكؤوس وفتنة الأحاديث .

وهذا مجلس من مجالس الشراب لا يبذه مجلس للعباسيين ، ففيه ساق جميل وفتيات نواعم سواحر . ولعل هذا هو الذى أذهل الشاعر عن وصف الخمر وعتقها وجمال الكأس وصورتها وحوار الشرب وأحاديثهم ، فكأن السكر يكون بالعيون والألفاظ لا بالكؤوس والشراب .

وعدى بن زيد ، أقبل على الشراب كذلك ووصفه ، فصور الساقية قينة فى يمينها إبريق الخمر قد صفته بالمصفاة ، ثم وصف الخمر سلافاً كعين الديك فمزجه بالماء ولذ طعمه ، ونظر إليه وقد علت سطحه فقاقيع حمراء كالياقوت فأحبه ، ووصفه بأسلوب لطيف قال فيه :

بكر العاذلون فى وضح الصبـ ـح يقولون لى : أما تستفيق ؟
ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة فى يمينها إبريقُ [٢]
فدمته على عقار كعين الد يك صفى سلافها الراووق [٣]
مرةٌ قبل مزجها فإذا مـا مزجت لذ طعمها من يذوق

---

(١) الصداع والصالب : وجع الرأس – التدويم : الدوران .
(٢) الصبوح : الخمر تشرب فى الصباح .
(٣) فدمته : صفته بالفدام وهو مصفاة توضع فوق الإناء ليصفى ما فيه – العقار : الخمر – السلاف : خالص الشراب وأوله – الراووق : المصفاة .

وطفا فوقها فقاقيع كاليا قوت حمر يزينها التصفيق [١]
ثم كان المزاج ماء سحاب لا صدى آجن ولا مطروق [٢]

وهكذا شرب الجاهليون خمرهم فى الصباح عند الفجر ، واختاروا الحمرة لوناً لها ، وأحبوها معتقة ، وفضلوا أن يكون الساقى جميلا فى وجهه عذباً فى صوته ، وأن يكون على لباس خاص ، وأن تحيط الغانيات بمجلس الشراب . وبذلك عرفنا ما كانوا يرغبون من لونها وتصفيقها . وما كانوا يحبون من جنسية ساقيها ولباسه ، وشهدنا من عاداتهم فى تقليد الفرس والروم فى ذلك ، وأنها تكلفهم ثمناً غالياً ، فلعلها وسيلة للمدح والفخر والاعتزاز للثراء والنبل والفتوة . ولا بد كذلك أن يكون فى الشعراء من لم يستطع الإكثار منها ولكنه جارى غيره فى وصفها وأسهم فى نعتها ، ليقال فيه ما يقال فى السرى النبيل ، وشأنهم فى ذلك شأن من يقول فى الغزل وهو لا يشعر بالحب ولا يكتوى بالبعد .

---

(١) التصفيق : نقل الشراب من إناء إلى آخر ليصفو .
(٢) صدى : متغير — آجن : راكد وفاسد — مطروق : مباح للناس .